مناجاة ما عادت سرية مع امي: جدلية الامومة والزواج

نهوند القادري

لم اكن لافكر يوما ان اتناول سيرة امي على صفحات الكتب لاسباب عديدة منها ما هو على علاقة بعدم مقدرتي على كتابة السير ، ومنها ما يعود الى قناعتي ان امي لم تكن تلك الشخصية الاستثنائية لتكتب سيرتها بالمعنى المتداول لكلمة سيرة ، غير ان تمني صديقتي جين ونهى دفعني لافكر في شخص أمي من اين سانتاولها . واذ بالومضة تشتعل في رأسي وتأخذني الى حوار سري طالما افترضت اني أجريه مع امي ودون ان ادري، واذا بهذا الحوار يأخذني نحو العديد من الاشكالات التي طالما راودتني دون ان اعي انها نابعة من اشكالية الام والزوجة التي عاشتها امي، والتي ربما تكونت لديها عبر ردة فعل على اشكالية مغايرة عاشتها جدتي، والتي اظن انها ولدت لدي اشكالية تمظهرت بشكل مغاير، واتوقع ان تطال شظاياها ابنتي.

ادمنتِ الامومة حتى الرمق الاخير ، انجبتِ دزينة من الاولاد حتى نهاية عمركِ الانجابي وكم كنتِ تتمنين لو كانت شائعة اساليب منع الحمل في أيامكِ، دائما كنتِ تتضرعين الى الله ان يرزق اولادكِ الاثني عشر باولاد، وكان لكِ ذلك. ولكنكِ في الوقت عينة كنتِ توصيهم بتنظيم الانجاب .

عشنا جديتكِ وحسن تدبيركِ ، وايمانكِ وتمعنكِ في معاني القرآن ، وانهماككِ في تعليمنا وانتِ كنتِ آنذاك الوحيدة في ضيعتنا التي تحسن القراءة والكتابة ، في حواراتي السرية معكِ كنت اسألكِ من اين لكِ الوقت لتهتمي بكل هؤلاء الاولاد ، وتهتمي باخوتكِ لانك طالما كنتِ تمتعضين من جدتي لكونها تمزح ونهوى ان تعيش ليومها ، وغير ملتزمة بالطقوس الدينية ، وهي القابلة القانونية التي تشهد على ولادة اجيال في بلدتنا ، وتهتمي بالجيران والمعوزين ، وتسدي النصح لكثيرات من النساء ، اذكر كيف ربيتنا صبيانا وبنات بالطريقة ذاتها وعلى القيم نفسها. وهذه نقطة اسجلها لكِ وعليكِ .

لفتني كيف والدي كان يسلمكِ كل ما يجني من اموال، وكيف كنتِ انتِ تديرين المصروف بحرية تامة، ودون مساءلة منه، وكيف وثق بكِ لدرجة كنتِ انتِ تحددين له مصروفه، وكيف استطعتِ ان يكون لكِ رأيكِ في التنافس الضيق بين العائلات على المخترة والبلدية، واذكر مرة كيف ساهمتِ في إنجاح احد رؤوساء البلدية، وانتِ لكِ المونة على الكثيرات ممن يقدرنك ويحترمنك.

مارستِ لعبة الامومة بقداسة ونقاوة لدرجة انكِ في ايامكِ الاخيرة في المستشفى وعندما ارتفعت حرارتكِ لدرجة الهذيان وهممتِ ان تقومي من السرير، قلت لكِ: الى اين ؟ اجبتي: اريد ان اغطي الاولاد . اعرف كم كنتِ تتعذبين زمن الخوف من القصف الاسرائيلي الحاقد ، وتعتريكِ المشاعر المتناقضة، تخافين على اولادكِ وفي الوقت نفسه تريدين ان يكونوا من الملتزمين بالانسان ومن المدافعين عن العدالة، وهذا ما اصابكِ يوم سجن اولادكِ، بسبب دعمهم للمقاومة الفلسطينية.

اعرف انكِ عندما مرض والدي وحتى أثناء مرضكِ لم تكوني قلقة إلا على قلق أولادك ، لدرجة كنت اتحاشى ان انظر في عينيك خجلاً من قلقكِ غير المبرر. ولطالما كنت أذهب اليكِ وكلي حماس لاهتم بكِ، واذ بي اجدكِ تجهدين لتحوري اهتمامي نحو اخوتي الذين كنت تهجسين بالاهتمام بهم وهم كبار.

على المقلب الثاني، طالما كنت احاوركِ كزوجة، اسألك: لماذ لا تتذوقين وتتجملين لزوجكِ؟ أليس له ولنفسكِ حق عليكِ؟ لماذ لا تتدلعين، لا تمرحين؟ لماذا لم يسترق أحدنا علائم الغنج والدلع على وجهكِ، أوليس الدلع سر الحياة الزوجية؟ لماذا اخذتكِ الامومة وأسرتك لدرجة انكِ ادمنتها وطافت عنكِ لتمتد إلى الاحفاد والجيران ؟ وما زلت اسألكِ ولم أجد منكِ أية إجابة . هل امومتكِ الفائضة سلبت منكِ متعة الحياة الزوجية ؟ ربما سوف تجيبيني ان عمق الجمال كائن في زرقة عينيكِ ، في وجهكِ الملائكي المشع ، انها نعمة الله عليكِ . لكن ذلك لا يقنعني لان ما يسمى جمال الروح لايقوم على الشكل وعلى الجدية فقط، بل انه طالما يتغذى من المرح ويترعرع في قليل من التسلية.

ألا تفترضين معي ان المغالاة في الامومة كفيلة باجهاض متعة الزواج ، لاني لا اذكر انكِ تدخلتي في زواجي او في خياراتي ، ولا اذكر انكِ همستِ في اذني شيئا ما عن الزواج وعن اساليب النساء مع ازواجهن، ولاأذكر انكِ انهمكت في تجهيزي لذلك ، كما تفعل الامهات التقليديات. كل ما اذكره انكِ وجدت في زوجي رجلا محترما واحببته على هذا الاساس وطالما رددتي انه" ادامي" وكفى، لدرجة انكِ لم تسأليني يوما عن اموري الخاصة ولم تراودكِ نفسك ان تسأليني اذا كنت سعيدة في زواجي، أليس ذلك مؤشراً على ان هذه الامور لاتعنيكِ وغير مدرجة في حسبانكِ؟ !

أعود وأسألكِ : هل فعلا تستقيم الامومة اذا لم تسند بمتعة الحياة الزوجية ؟ واذا كانت الامومةعطاء صرفا دون مقابل، وهل في ذلك إسعاد للذات وللشريك، وللاولاد ؟

كردة فعل على إدمانكِ لأمومتكِ، لا أخفيكِ سراً اني قررت أن اتحكم بأمومتي وان اهرب من اسرالامومة المقيدة للذات ، اولا بتقليل عدد الاولاد ، وثانيا في المزج بين الجدية والمرح، الاخذ والعطاء، ولطالما كنت اهوى ان ألعب دور الابنة لاستمتع باهتمام اولادي بي، وبذلك اضرب

عصفورين بحجر واحد، انا استمتع وأتدلل وهم يتعلمون المبادرة والعطاء ، ولطالما حدثتني نفسي أن أرفد تلك الامومة من وقت لأخر بمتعة الحياة الزوجية. وكي لا اعيد تجربتك أوصي أولادي ان يهتموا بي وألايتركوني وحيدة في حال قدر لي ان اشيخ او اعجز .

اسرت لي ابنتي يوما وهي صغيرة انها تحلم في الزواج بهدف انجاب اولاد كي ترييهم جدتهم ، ضحكت في سري وكدت اصرخ: لقد نجحت ، ابنتي معجبة بتربيتي. غير أني أعرف ابنتي جيداً واتوقع انها لن تفعل ذلك ، واتوقع لها ان تعيش امومتها بشكل مغاير عما عشته انا.

فلكل امومة زمانها ، وأبوة تقابلها وتعمل بمثابة مرآة عاكسة لها ، وربما لكل امومة مكانها .